الوصف السردي في أخبار ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦هـ)

م. م. عزيز موسى عزيز الموسوي

أ.د. جميل بدوي حمد الزهيريّ

جامعة واسط كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخص البحث

يأخذ الوصف حيزاً كبيراً داخل النصوص السردية ، وكثيراً ما نجد أغلبها (الرواية والقصة) تبدأ به بمثابة الشرح للعالم الذي يُهيئ المتلقي لدخوله وجعله منشداً للقادم من الأحداث لذا يعد الوصف المفتاح الأول الذي يفتح قسماً من مغاليق النص ، والإشارة الأولى لكل ترميز داخل النص ، وهنا تكمن قدرة الأديب في إظهار براعته الوصفية من حيث تصويره للمشاهد، والشخصيات، والأماكن التي تضم تلك الأحداث المسرودة ، ومن خلاله يتمكن الأديب بتجسيم المعنويات ، و تصوير الماديات وجعلها تنبض بالحياة وذات قيمة داخل كل عمل سردي (قصصي أو روائي ، أو إخباري) ؛ لذا أولاه الدارسون ، والنقاد ، والأدباء عنايتهم الكبيرة فتناولوه بحثاً وتفسيراً معتمدين ما بين أيديهم من نصوص أدبية سردية ، وغير سردية وكل وصف يأتي فهو يدور في محيطيهما ؛ لذا نجد معظم الدراسات التي تتناول السرد كثيرا ما تتجه لدراسة الوصف كونه عنصراً أثيرا في النص السردي ، وهذا ما سنقاربه في موضع الدراسة ، متخذين من الوصف المكاني ، و وصف الشخصيات منطلقاً ؛ كون المتن المدروس قد ركز عليهما .

Conclusion

Narration includes all written and read discourses, whether literary or non-literary, such as televised speech texts and others, and what is written on social media platforms, history books and texts describing a specific problem, and since

narrative is a branch of poeticism, which is the science that deals with devising the internal laws of genders The literary system, the extraction of the systems that govern it, the rules that guide its structure and determine its characteristics and characteristics, it must be characterized by its methodology and laws that distinguish it from others, and it has a number of characteristics that distinguish the narrative text from other literary texts, and among these characteristics (description), as it cannot be For any narrative text or approaching narrative to ignore this characteristic, it must be based on it as needed by the nature of the narrative text.

أولاً : وصف المكان :

يُعد المكان الحيز الذي تدور فيه أحداث معظم السرود ، أو أحداث كل قصة ورواية ، ومع ما موجود من فضاءات خيالية من نسج خيال القاص إلا أنّها جميعا تظل حيزاً يضم أحداث النص بشخصياته وتفاصيله المختلفة .

وقد حظي المكان بحيزٍ واسعٍ من الدراسات الأدبية التي تناولته من جميع أبعاده ، حتى أنه أصبح ذلك الحيز الذي لا يمكن تجاوزه أو عبوره ؛ كونه يمثل البعد المادي للأحداث الواقعة فيه لا عليه ، كما وصفه

بذلك ياسين النصير[١]. وهو " مساحة أبعاد هندسية طبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم ونظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني"[٢] ، وتأتي أهميته بما تنطوي عليه الرؤية الإبداعية لمنتج النص ، وقدرته على جعل تلك الرؤية مدركة لدى المتلقي ، أو ينسجها خيالياً كون الإنسان " يعجز عن إدراك شيء واحد في الفراغ ، فالشيء إنما يصبح أكثر حقيقة وأنت تراه ضمن شبكة أوسع فأوسع من العلاقات مع الأشياء الأخرى"[٣] فيُرى أنّه على أساس من التخيل ، لكن بنسبة من التماثل ، أو المحاكاة للعالم خارج النص ، فليس من الممكن بناء حدث ما ، أو شخصية بعيداً عن ذلك المكان واضح المعالم ؛ لما له من قدرة على إيصال الإحساس بمعنى الحياة ويؤكد ديمومة التواصل معها[٤] ، وتأتي قدرة منتج النص (المبدع) على جعل المتلقي يعيش جانباً من التخيل بحسب قدرته ، أو قابليته التحليلية ، إذ يستند المبدع إلى خاصية الوصف التي تجعل ما يصفه (المكان) يماثل الحقيقة ، فيحمل أبعادها وصفاتها ويُشعرنا أننّا إزاء عالم مدرك بالحواس ، من خلال ما يرسخ إلينا من الخيال الذي يأخذ أثرا واسعا في التوصيف الذهني للمكان ، وهذا الوصف المكاني يأخذ أثره في وصف الشخصية نفسها ؛ كونه يمثل ذلك الامتداد لها الذي بدوره يكون امتدادا للمكان فهما يطبع كل منهما الآخر[٥].

ويمثل المكان في الخبر وكما قاربناه عند ياقوت الحمويّ مكاناً واقعياً موجوداً للعيان ، إلاّ أن وصفه له يجعلك تنتقل من تلك الواقعية المعهودة إلى الواقعية المتخيلة التي ترشح لذهن المتلقي بما يجعله ينسج للمكان صورة متخيلة في الذهن لا تشبه تماما تلك الصورة الواقعية ، علما أنّ الحمويّ في أخباره ينقل المكان بمسمياته ، لكن بوصفه له يجعلك تتخيل ذلك المكان على الرغم من بعد المسافة الزمنية للمتلقي ، من ذلك ما يصف به مدينة (أشبير) وهي مدينة تقع في بلاد المغرب : "وهو موضع خال مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحُسن منظره ... وعمل على جبلها حصناً مانعاً ليس إلى المتحصن به طريق إلا من جهة واحدة تحميه عشرة رجال"[٦] ، نجد أنفسنا هنا إزاء وصف لمكان لولا المسمى الأول له ، وتحديد مكانه لكنا أمام مكان متخيل مماثل للواقعي في أبعاده وبعض صفاته ، وفي موضع آخر قال : " وقال الأصطخري : أرّجان مدينة كبيرة ، بها نخيلٌ وزيتون وفواكه الجُروم والصرود ، وهي برية بحرية ، سهلية جبلية ، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة ، وبينها وبين شيراز ستون فرسخا وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخا ... بأرجان كهفٌ في جبل ينبع منه ماءٌ شبيه بالعرق من حجارة فيكون منها الموميا الأبيض الجيد وعلى هذا الكهف بابٌ من حديد وحفظةٌ ، ويغلق ويختم بخاتم السلطان إلى يوم من السنة يُفتح فيه"[٧]، وعندما نقف أمام هذا الوصف الدقيق وكأننا في عالم تخيليّ من خيال الناقل للخبر لولا وجود التحديد الأولي للمكان (كما

ذكرنا سابقاً) ، لكن عندما ننتقل إلى الجزء المتبقي من الخبر نجد أنّا إزاء عالم يكاد يكون من نسج خيال المبدع قصداً منه لتشويق المتلقي ، وشد انتباهه عبر ما بثه من مفردات تجعلنا منشدين أمام الخبر للوقوف على نهايته ، منحته شعرية خاصة إلى حدٍ ما .

ومع صغر المساحة السردية للخبر ، وكونه أصغر وحدة حكائية كما وصفه سعيد يقطين[٨]، إلا أنه يحمل شحنات من الدلالة مما يجعل هذه الوحدة الحكائية منتمية لعالم أكبر هو السرد سواء أكان هذا الخبر متعلق بالوصف أم بنقل خبر لحادثة ما ، وكذلك فإن الخبر "هو الكلام ، أي أنه خطاب يتوسل باللغة ، وهو إلى ذلك كلامٌ فني ، واللغة مهما بلغت من الدقة عاجزة عن إخراج الموجودات على نحو موضوعي ، وإنما هي في أحسن الحالات مرآة

محرفة للأشياء"[٩] ، لذا لا يمكن فصل مكونات السرد بعضها عن البعض الآخر إلا لغرض التجريد ، فالوصف فعل مكاني يأتي لإيقاف زمن السرد ، ليحدد ثبات المكان ومن هنا لا يمكن عزل الوصف عن السرد ؛ كونهما مشتركين في صياغة السرد على ما بينهما من تفاعل تارة ، وجدل تارة أخرى ، فلكل زمان مكانه المعين الذي يحتويه ، وكذلك لكل مكان زمنه المحدد الذي به تتشكل أحداثه[١٠] ، وهذا ما قاربناه في الأخبار السابقة ، وما سيأتي من أخبار .

إذن يشكل الوصف عنصراً أساسيا من عناصر السرد ، ففيه يتم الشرح الذي تعتمده سائر النصوص الأخرى كالتاريخ والجغرافيا وغيرها التي تعتمد التوضيح والتفصيل ، أما في السرد فيعد الوصف الأداة الأولى لهذا التوضيح ، لكن بأسلوب أدبي معين يتقصى تفاصيل المكان وجزئياته .

ونجد في الأخبار التي أوردها الحمويّ في معجم البلدان خاصية الوصف الدقيق للمكان ينطلق من خلاله للتوضيح ، والتعريف به من حيث المعنى اللغوي ، فيُعدّ وصفا دلاليا للاسم ، ثم ينتقل بعد ذلك لتفسير رأي اللغويين فيه ، ويعالج آراءهم بالتحليل ، والنقد ، والترجيح للأصوب منها ، من ثم يعرج على ما يذكر فيه من صفات ، وذكر من اشتهر من علمائه .

ونجد أن الوصف في معجم البلدان أكثر أدبية من الوصف في معجم الأدباء ؛ ذلك أنّ الأول تناول المكان الذي في الأغلب ما يكون أثيراً بالوصف من دون غيره من العناصر الأخرى في السرد ، فضلاً عن أنّ الحمويّ لم يركز في وصفه في معجم الأدباء على تقصي صفات الشخصية التي يذكر أخبارها بقدر ما يركز على نسبتها كما فعل في معجم البلدان ، لكن هناك وجه للتقارب في الوصف بين المعجمين يمكن لنا أن نستقصيه من خلال المقارنة بين بعض المرتكزات بين الخبرين في المعجمين من حيث :

١- الاسم : ففي معجم البلدان نجد أنّ الحمويّ يبدأ بذكر التعريف اللغوي لاسم المكان لينتقل بعدها إلى وصف المكان وحدّه ، ومن ثم ينتقل إلى ذكر الأخبار التي يسندها إلى رواة تلك الأخبار، كما في الخبر الآتي : "جُرَشُ : بالضم ثم الفتح ، وشين معجمة : من مخاليف اليمن من جهة مكة ، وهي من الإقليم الأول ، طولها خمس وستون درجة ، وعرضها سبع عشرة درجة ..."[١١] وهكذا يتصل كلامه في رواية أخبارها .

٢- الإسناد : وهذه الخصيصة سنعالجها بشكل أوسع في القادم من الدراسة ، لكن نجد أن الحمويّ في معجم الأدباء يعتمد بشكل كبير على الإسناد ويوليه أهمية كبيرة جداً ؛ إسهاماً منه في تقصي الشخصيات التي يترجم لها ، وهو ما يدخل ضمن باب الوصف لها ، من ذلك ما جاء في ترجمته لأسامة بن مرشد بن مقلد(ت ٥٨٤هـ) : " ابن نصير ، بن منقذ ، بن محمد ، بن منقذ ، بن نصير ، بن هشام ، بن سوار ، بن زياد ، بن رغيب ، بن مكحول ، بن عُمر ، بن الحارث ، بن عامر ، بن مالك ، بن أبي مالك ، بن عوف ، بن كنانة ، بن بكر ، بن عُذرة ، بن زيد اللاّت ، بن رفيدة بن ثور ، بن كلب ، بن وبرة ، بن ثعلب ، بن حلوان ، بن عمران ، بن قضاعة ، بن مالك ، بن حمير ، بن مرة ، بن زيد ، بن مالك ، بن حُميد ، بن سبأ ، بن يشجب ، بن يعرب ، بن قحطان "[١٢] وهذا بمثابة الوصف الدقيق للشخصية من حيث الانتساب ، ثم ينتقل بعدها في نقل أخبارها .

وتأخذ الأخبار في معجم البلدان بعداً أدبياً أكثر مما في معجم الأدباء ، أو المقتضب في الأنساب من مؤلفات ياقوت الحمويّ ؛ لأن كثيراً من الأخبار التي يوردها تحمل في طياتها بعض الصفات الخيالية ، أو الأسطورية ، وهذا ما سنوضحه لاحقا في أنماط الخبر من ذلك ما يورده في خبر بابل " تقول العجم : إنّ الضحاك الملك الذي كان له بزعمهم ثلاثة أفواه وست أعيُن ، بنى مدينة بابل العظيمة ، وكان ملكه ألف سنة إلاّ يوماً واحداً"[١٣]، وهذا الخبر يحمل في طياته البعد الخيالي غير الواقعي الذي لا يمكن لأحد في يومنا هذا التصديق فيه ، فهذا الوصف أحال المكان إلى أسطورة خيالية ، وهو ما كان سائدا في الفكر القديم ، لكن مثل هذا الوصف لا نجده في كتابيه الآخرين (معجم الأدباء أو المقتضب في الأنساب) ، لكن يظل المكان الذي يصفه الحمويّ ، أو ينقل أخباره مكاناً موضوعياً ذا فضاء مدرك حسياً ، لكنه يحمل تنوعا تنتجه مخيلة المتلقي الأدبية ، وقد تعددت تسميات المكان الموضوعي لدى الباحثين والنقاد ، فهو عند النصير ذلك المكان المعيش[١٤] ، أو المكان الممكن[١٥] ، فالمكان هنا له حضوره المادي الذي تدركه الحواس ، و"يستثير المكان الموضوعي في ذاكرتنا ما انطبع بها تجاهه من تصور فردي وجمعي ، وهو

يستمد قيمته الإبداعية من جوهر الموقف الإنساني تجاهه والاستجابة النفسية الواعية واللاواعية"[١٦] فالحس بالمكان إذن يظل متأصلاً في الوجدان عميق في الوجدان البشري .

إذن تأتي أهمية المكان من حيث إكسابه العمل السردي أهمية وتأثيراً "بوصفه قوة غيبية تفرض سطوتها على الإنسان وممارساته ، فهي ليست حيزاً فيزيائياً أو جغرافياً محايداً ، بل إنها سلسلة دوال تحيل إلى مدلولات عديدة ... وإن الإنسان يصنع للأمكنة تاريخاً سردياً حتى يؤكد حضوره حقيقة ورمزاً"[١٧] ، فنجد أنّ الإنسان يظل مشدوداً للمكان سواء أكان حقيقياً أم سردياً ؛ لقدرته على تحريك روح الانتماء إليه ، فبه يمثل ذاته وارتباطه ، فيصنع بذلك عالمه المرجو والمُراد ، لذا نجده مشدوداً سردياً لتلك الأماكن التي يجد فيها الألفة أو الهدوء ، وهي تلقي في نفسه ما كان يرتجيه عبر ماضيها الذي يراه امتداداً لتاريخه الحاضر ، فنجد عدداً الأمكنة أخذت أهمية كبيرة في مخيلة القارئ ؛ كونها تعيده إلى تاريخه الحافل بكل ما يبعث فيه الفخر أو الحماسة .

وذكر الحمويّ في أخباره مكاناً من بغداد اسمه (الحريم الطاهريّ) نجد من صفة هذا المكان ما يشعرك وكأنك في ذلك التاريخ القديم ، وما فيه من عبق : "الحريم الطاهريّ : بأعلى مدينة السلام بغداد في الجانب الغربيّ ، منسوب إلى الطاهر بن الحسين بن مصعب بن زُريق ، وبه كانت منازلهم ، وكان من لجأ إليه أمن ، فلذلك سمي الحريم ، وكان أول من جعلها حريماً عبد الله بن طاهر بن حسين ، وكان عظيماً في دولة بني العباس ... ولما أراد عمارة قصره ببغداد وهو الحريم هذا ، وقد كانت العمارات متصلة وهو في وسطها ، وأما الآن فقد خرب جميع ما حوله وبقي كالبلدة المفردة في وسط الخراب ، وهو عامر ، فيه دور وقصر مطل متصل به شارع دار الرفيق ، وبعضه عامر ، وفيه أسواق ، وله سور بحيّزه"[١٨] ، نجد في وصفه لهذا المكان استقصاءً نفسياً لتلك الروح المفعمة بروح الحمية والحماية ، إذ يثير في المتلقي روح الفخر والاعتزاز والانشداد لذلك المكان والانغماس فيه ذاتياً ، وكأنك أمام لوحة في الفخر بريشة فنان بارع يعرف كيف يختار الصفات التي تشدك إلى أخباره ، وهذه التهيئة النفسية هي الوسط الناقل الذي استعان به الحمويّ في نقل صفة ذاك المكان وما اتصف به من حماية واستغاثة للملهوف وهو ما تناسق مع مسماه الوظيفي الذي بينه الدال الأول (الاسم) وما أكمله الدال الثاني المتمثل بالفضاء الأوسع (بغداد دار السلام) ، فوضعنا بين دالٍ لفظي له دلالته ومدلول لفظي آخر له مدلولاته ، فجعلنا ننتقل بالمخيلة عبر العصور إلى ذلك التاريخ الحافل بالسيادة والأمجاد ، "والأثرة في المكان قيمة نفسية تتموضع في تشبث الذات به ،

وبالبقاء ضمن أبعاده الآسرة ، والتمتع بهباته النفسية التي تبسط هيمنتها على الذات الرائية بيسر واقتدار"[١٩] ، فوراء الأماكن لحظة معيشة تلتقط تجربة وهذه التجربة هي في مكان ما[٢٠] .

إذن نلحظ أن الوصف الذي اعتمده الحمويّ في معجم البلدان هو وصفٌ لأماكن واقعية جميعها موجودة جغرافياً لكن اسلوب الوصف لها ينقلنا عبر المخيلة إلى أماكن نرسمها ونتصورها ذهنياً ؛ لبعد المسافة الزمنية بيننا وبينها ، ومع هذه الواقعية إلا أننا نجد بعض الغرائبية في أخبار هذه الأماكن ، وهذه الغرائبية لا تتصل بالمكان بصفته مكاناً متخيلاً ، بل لما يحدث فيه من أحداث لا يتقبلها العقل ، ولا حتى ناقل الخبر (الحمويّ) إذا نجده مع إيراده لهكذا أخبار يُصرح بعدم مقبوليتها لكنه ينقلها عن رواتها ولا يلزمه ذلك أو المتلقي بتصديقها أو الاعتقاد بها .

هذا التتبع للوصف من خلال أصغر وحدة حكائية (الخبر) يُظهر قدرة هذا الجزء من السرد على ضم خاصية مهمة ، وركيزة أساسية من ركائز السرد ، وبهذا فهو قادرٌ على احتواء خاصيات أخرى كوصف الشخصيات ، أو بنية الزمن من حيث الاستشراف والاسترجاع مع استبعاد غايات المؤلف أو ناقل الخبر ومبدع النص ، فقد يكون الأول (ناقل الخبر) غير ملتفت لهاتين الخاصيتين ، ولم يوليهما العناية لكنهما وردا في نصه الإخباري من دون قصد من حيث اعتماد هكذا نوع من البناء ، أما الثاني (مبدع النص) فقد اعتمد هذه الخاصيات كأساسيات في بنائه السردي ، فلا يمكن له تجاوزهما مع اختلاف المقدار منها بين المبدعين ، وطبيعة النصوص ، فقد نجد نصاً بالكامل يروي ما كان وهو ما يسمى حديثاً بـ(الاسترجاع) ، وفي هذا يشترك الخبر مع هكذا نصوص كونه يعتمد على أخبار سبقت زمن الإخبار بها ومنحها الزمن الماضي هذه الصفة ، فصارت أخباراً استرجاعية تحكي ما كان واقعاً قبل زمن التكلم ، وهناك نصوصٌ استشرافية بصورة كاملة أو يمثل الاستشراف بنية بارزة فيها ، وهذا ما يضعف عنه الخبر ، أو أنه يكاد يتماهى داخل بنيته إلا بعض الأخبار التي تحيل إلى ما سيحصل من خلال عدد من الإشارات فيها ، وهذا أيضا يجعل الخبر منتمياً إلى السرد مع صغر المساحة السردية التي يتحرك فيها ، لكنه يحمل من الشحنات ما يجعله ضمن الدائرة الأوسع (السرد) ، بل يُعد حجر الأساس فيه فمن مجموعه تتكون الحكاية ، والسيرة وما بين هذه الأنواع من تراكم يؤدي إلى تكون الأنواع السردية[٢١] .

ومن هنا يمكن إيجاد أهمية الخبر داخل البناء السردي : من حيث كونه انطلاقة إلى بناء نصوص سردية كبرى ، وهو النواة الأولى لها ، وما يميز الخبر عن سائر النصوص السردية الأخرى هو اعتماد السند في الإخبار ؛ لإعطائه صفة الحقيقة والمعقولية في النقل والتوثق في القول ؛ لذا فهو يعتمد على

الوصف في إضفاء المصداقية في أحداثه (ونعني هنا المتن المدروس لياقوت الحمويّ) الذي يأخذ صفة الحقيقة الواقعية إلا أنه في الوصف يخرج إلى الصفة الأدبية وهو ما تذهب إليه نظرية الأدب .

قال الحمويّ عن مدينة النجف : "قال السهيلي : بالفُرعُ عينان يقال لإحداهما الربضُ وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها ، والنجف قشور الصليّان ، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب "[٢٢] .

ولم يكتف الحمويّ بالوصف المكاني لأرض النجف ، بل أضاف إليها بعداً دلالياً يمثل أحدى الصفات لهذا المكان ، وهو قبر أمير المؤمنين (عليه السلام) وهذا الدال يعطي لدى المتلقي الصفة الدينية للمدينة لهذا المكان مما يوحي بقداسته ، وهذا دليل على توخي الحمويّ في نقله لأخبار الأماكن أن يذكر كل ما يتعلق بها من أمور ذات قيمة وأحداث ذات مغزى ودلالة ، وهذا يعني تمكنه مما ينقل وبذله لجهدٍ كبير في تقصي أخباره وإيرادها.

وفي خبر لقرية (عقرقوف) العراقية قال في وصفها: " هي قرية من نواحي دجيل ، بينها وبين بغداد أربعة فراسخ وإلى جانبها تل عظيم من تراب يرى من خمسة فراسخ كأنه قلعة عظيمة لا يُدرى ما هو إلاّ أن ابن الفقيه ذكر أنه مقبرة الملوك الكيانيين ، وهم ملوك كانوا قبل آل ساسان من النبط ... وقد ذُكر أن هذه القرية سميت بعقرقوف ابن طهمورث الملك ، قال محمد بن سعد بن زيد بن وديعة بن عمرو بن قيس بن جزي بن عدي بن مالك بن سالم الحُبلى وأمه ام زيد بنت الحارث بن أبي الجرباء بن قيس بن مالك بن سالم الحبلى كان لزيد بن وديعة من الولد سعد وأُمامة وأم كلثوم وأمهم زينب بنت سهل بن صعب بن قيس بن مالك بن مالك بن سالم الحبلى ... وكان سعد بن زيد بن وديعة قد قدم العراق في خلافة عمر بن الخطاب فنزل بعقرقوف"[٢٣] .

نلحظ أنّ وصف الحمويّ لهذه القرية معتمدا تاريخها ، مسنداً إياه لشخصيات كانت تسكن هذا المكان حتى عرف باسمها ، وهو كما ذكرنا سابقا يحفز لدى المتلقي ذاكرته ويفعل خياله ويجعله على تماس مع تاريخ طويل ، لكن الوصف الذي ورد هنا وصفٌ تاريخي ، وليس كسابقه عندما تحدث عن مدينة النجف ، فألحق بها الوصف الديني ، وهذا يشير إلى تقصيه الدقيق لتفاصيل الأماكن التي يذكرها .

إذن اعتمد الوصف المكاني عند ياقوت الحمويّ على تقصي حقيقة المكان ، و وصفها بدقة متناهية بالنسبة لعصره ، وذكر ما تعلق بها من أخبار ، أو ما مر بها من شخصيات تفاعلت مع المكان حتى صارت جزءاً منه أثيراً ، حتى بات من العسير فصلها عنه ، فتماهى فيها البعد الفاصل بين المكان ،

والشخصية ، وأصبحنا وكأننا أمام مسمى ، أو شيء واحد لولا التقصي التاريخي ، وهذا ما أثبته خبر (عقرقوف) ، أو غيرها من الأماكن التي ذكرها في معجمه ، وهذا ما نجده من رأي لأفلاطون الذي عد الزمان مظهراً نظامياً من مظاهر العالم ، لكن المكان – فهو بالضرورة – موجودٌ أزليٌ ، وأولى اهتمامه للمكان أكثر من الزمان وفرق بين مرتبتيهما من حيث التساوي[٢٤] ، وهذا الاهتمام بالمكان لدى أفلاطون كان مهاداً نهض به أرسطو ؛ لأثبات وجود المكان وما يخصه من تلك المكونات الحقيقية[٢٥].

إذن موضوع المكان شغل الجميع ، ودفعهم إلى التفكير فيه بداً من الفلاسفة وحتى الأدباء والنقاد فصار أرضاً خصبة للبحث ، والكتابة ، والإبداع ، ولا يمكن تجاوزه بأي شكل كان ، فقد عده الكندي ووصفه بأنه "موجودٌ وبيّنٌ لا يمكن إنكاره"[٢٦] ، وهذا الوصف للمكان يأخذنا إلى المكان الحقيقي أكثر من المتخيل ، أما ابن رشد ، فقال في المكان : "ليس هو الفضاء بل النهاية المحيطة بالحركة"[٢٧] ، و نجد أنفسنا أمام توصيف أوسع للمكان قد يدخل في طياته المكان الخيالي ، ليُعد انطلاقة للمكان الخيالي ، ودخوله علم المرويات والأخبار ، فهو يتجه من الواقع المعيش إلى الواقع المتخيل الذي يرسمه الأديب من مخيلته ، ويفسره المتلقي في مخيلته أيضاً .

تجليات المكان عند ياقوت الحمويّ:

جاء المكان عند ياقوت بصور مختلفة ، ومتعددة ، لكن لا يمكن استجلاء كل مكان ورد لديه ؛ لأن قسماً من هذه الأماكن لا يمثل ظاهرة كبيرة مقارنة مع غيرها من الأماكن التي سنذكرها ، أو أنها تكون قد امتزجت مع الأقسام الكبرى التي تم تحديدها ، لذا سنعتمد التقسيم الآتي :

١ـ المكان الأسطوري : تحمل الأسطورة شحنات دلالية كبيرة داخل العمل الأدبي وفي الأغلب ما يلجأ إليه الأدباء في أعمالهم ، ولا تشمل الأسطورة على المجسمات الأسطورية فقط كـ(عشتار أ و تموز وغيرها) ، بل قد تتعلق الأسطورة بالأماكن وتمثلها بصورة أكثر تعبيراً ودلالة فـ "المكان الأسطوري حيز رمزي ، ونفسي مجرد تنتظمه تعالقات ، وروابط غرائبية افترضها الخيال الإنساني في بداياته السحيقة ، وقراءاته الأولى للعالم "[٢٨] ، وقد يرتبط المكان الأسطوري بشيء من التاريخ ، أو من الديانات السماوية ، كما في (إرم ذات العماد) التي ذكرها الحمويّ ، فقد وردت قصتها في القرآن الكريم ، فقد تدخل ضمن الأمكنة القرآنية ، لكن الحموي لم يستقها من نفسه ، لكن وظفها في أخباره ، فهي على وفق هذا ليست أماكن أسطورية بل تمت أسطرتها لبعد تلك المسافة الزمنية ، وما رافقها من أحداث ووصف لها والكيفية التي تعامل بها شعرياً كما في معاملتها المعاملة الأسطورية التي أخرجتها من سماتها الدينية ، ومن هذه الأماكن الأسطورية التي

أوردها الحمويّ (إرم ذات العماد) فهي تحكي خبر ذلك التحدي الساذج للقدرة الإلهية ، وقد منحها القرآن الوصف الدائم الراسخ في ذهن المتلقي ، إذ قال ياقوت في وصفها : "وروى آخرون أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، باليمن بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ورووا أن شداد بن عاد كان جباراً..."[٢٩] ، ويتم الخبر في صفتها وكيفية بنائها حتى نهايتها واندثارها .

٢ــ الأماكن التاريخية: وهي كثيرة وواقعية أيضا أوردها الحمويّ ، وحكى صفاتها ، وما يتعلق بها من شخصيات ، وحوادث ، حتى أصبحت تلك الأماكن تحكي تاريخها الطويل ، من ذلك ما جاء في وصف مكان اسمه (النُجير) يقول في صفته : "وهو تصغير النجر ... حصن في اليمن قرب حضرموت منيع لجأ إليه أهل الردة مع الأشعث بن قيس في أيام أبي بكر ، فحاصره زياد بن لبيد البياضي حتى افتتحه عنوة وقتل من فيه وأسر الأشعث بن قيس وذلك في سنة ١٢للهجرة"[٣٠] ، وما نلحظه أنّ المكان اتسم بسمة التاريخية من خلال ما جرت فيه من أحداث مهمة كان لها صداها آنذاك.

٣ـ الأماكن الدينية : وهي أيضاً كثيرة ، لكننا نورد منها على سبيل المثال لا الحصر ، هذه الأماكن تحمل صفاتاً قدسية ؛ لما تحويه من معالم دينية كمكة ، والنجف ، والكوفة ، وغيرها من الأماكن ، " كان عليٌ عليه السلام يقول : الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء ، والذي نفسي بيده لينتصرنّ الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز ، وكان سلمان الفارسي يقول : أهل الكوفة أهل الله وهي قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن ، وأما مسجدها ففيه فضائل كثيرة ..."[٣١].

ونلحظ في وصف مدينة الكوفة تلك الصفة الدينية التي وسمت المكان بسمتها ومنحته صفة القداسة ، وكان لموجودات المكان أثرٌ فعّال في ارتماس النص بالبعد الديني أكثر مما غيره ، ففي تكملة الخبر ما يحكي أهمية الموجودات في المكان الموصوف "روى حبة العربي قال : كنتُ جالساً عند علي عليه السلام ، فأتاه رجل فقال : يا أمير المؤمنين هذه راحلتي وزادي أُريد هذا البيت أعني بيت المقدس ، فقال ، عليه السلام : كلْ زادك وبع راحلتك وعليك بهذا المسجد ، يعني مسجد الكوفة فإنه أحد المساجد الأربعة ركعتان فيه تعدلان عشراً فيما سواه من المساجد والبركة ..."[٣٢].

من هنا لحظنا صفة الأماكن التي وصفها ياقوت الحمويّ ، وأخبر عنها في معجمه ، وهي كما قلنا كثيرة لكن أغلبها لا يتعدى ما ذكرناه من أماكن وذلك بحسب تجلياتها في معجمه ؛ كونه تعامل مع أماكن ظاهرة واقعية تحمل من الصفات الظاهرة للحواس ومع ذلك فهي تدخل ضمن الوصف الذي أحالها إلى أماكن متخيلة بالنسبة لنا ؛ لما فيها من صفات غير موجودة في يومنا هذا .

ثانياً : وصف الشخصية :

تمثل الشخصية أحد أركان السرد الرئيسة ؛ لما تضطلع به من تأثير داخل كل عمل سردي ، وهي الناقل الرئيسي لما داخل النص من أحداث ، واهتم بها الباحثون والنقاد ، واستقصوا تفاصيلها ، وأخذت تلك الأهمية من موقعها داخل السرد ، ومن دونها يستحيل وجود أي عمل سردي ، وهي محكومة بعنصرين رئيسين أحدهما مبتكر ، والآخر حقيقي "فهي محكومة بقواعد وانظمة يخترعها الكاتب ويبتكرها . مخصوصة بما يصادفه الكاتب من أفكار لشخصيات واقعية يطعمها بأفكار من مخيلته النشطة ليزجها في قصته"(٣٣)، وهذا التوصيف للشخصية الأدبية التي يصنعها الكاتب ليحاكي بها عوالم متخيلة من نسج خيال المبدع ، أما فيما يخص الشخصيات التي نحاول رصدها لدى الحمويّ ، فأغلبها شخصيات واقعية لم ينسجها من خياله ؛ لأنه ينقل أخباراً حقيقية واقعية لتلك الشخصيات المترجم لها ، وهي شخصيات معلومة لديه حقاً ، ولها من الآثار ما يعرف .

وقد ظهر الاهتمام بالشخصية ووصفها في الدراسات الحديثة ، ولم يكن كذلك قبلها(٣٤) ، بل وجدتْ حضورها الفعلي لدى (هنري جيمس ، وبيرسي لوبوك) ، وتطور الحال بعدها لدى النقد الأنكلوسكسوني في القرن التاسع عشر والقرن العشرين(٣٥) ، أما مع (بروب) فأخذت الشخصية بعداً آخر بعيدا عن البعد السايكولوجي ، لتتجه نحو الأساس العاملي (الوظيفة) ، وتقاس الشخصية بحسب ما يناط بها من عمل ، وهكذا أخذ مفهوم الشخصية ، و وصفها بالتنامي ، والتغير المستمر ، حتى جاء كريماس فاقترح "إنموذجاً تتأطر بموجبه الشخصيات ، ليس بحسب ما هي عليه ، وإنما بحسب ما تقوم به من أفعال"(٣٦) .

ولا نريد أن نذهب بعيدا في استقصاء أبحاث الشخصية أبعد من ذلك ؛ بالقدر الذي يهمنا في الوقوف على صفاتها لدى الحموي الذي أورد شخصيات كثيرة معظمها واقعية ، وليست من نسج خياله باستثناء عددٌ من تلك الشخصيات الواردة في قسم من الأخبار التي تأخذ صفة الأسطورية ، أو الغرائبية ، و لا بد من التركيز على الملامح الخارجية للشخصية كونها "أحد الأركان الأساسية للتشخيص ، وهو تقديم صورة استهلالية كاملة للشخصية ، ثم تقديم أحداث تعززها"(٣٧) ، وما يجسد التقديم الاستهلالي للشخصيات التي يوردها الحمويّ هو الإسناد في ذكر مسماها الحقيقي ، وهو ما يقابل الوصف السردي الذي يقدمه صاحب أي عملٍ سردي لشخصياته ، ثم ينتقل لنقل الأحداث الخاصة بها التي سوف تواجهها ، وهو ذات الشيء الذي يقدمه الحمويّ ، فبعد التقديم الإسنادي ينتقل إلى ذكر الأخبار المتعلقة بالشخصية المترجم لها وعرض نتاجها الفكري ليضعنا إزاء عمل سردي واقعي له شخوصه وأحداثه ، من ذلك ما ورد في خبر الحسن بن إبراهيم

بن زولاق(٣٨٦هـ ، ٣٨٧هـ) : "أبو محمد ، هو الحسن بن إبراهيم ، بن الحسين ، بن الحسن بن علي ، بن خلف ، بن راشد ، بن عبد الله ، بن سليمان بن زولاق المصري الليثيّ ، من أعيان عُلماء أهل مصر، ووجوه أهل العلم فيهم . وله تصانيف في التواريخ المصرية"[٣٨] ، نلحظ أنّ الإسناد قام بدور توضيحي وصفي للشخصية المترجم لها فهو بمثابة التعريف بها لمن لا يعرفها ، وهو ما يقابل الوصف في أية قصة أو رواية ، لينتقل بعدها لنقل أخبار الشخصية : "وحَدث ابن زولاق في كتاب سيرة العزيز المتغلب على مصر ، المنتسب إلى العلويين من تصنيفه ، حاكياً عن نفسه قال : لما خلع على الوزير يعقوب بن كلس ، وكان يهودياً فأسلم ، وكان مكيناً ، من العزيز ، فلما أسلم قلده وزارته وخلع عليه . قال ابن زولاق : كنتُ حاضراً مجلسه ، فقلتُ : أيها الوزير ، روى الأعمش عن زيد ابن وهب ، ... حدثني الصادق رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم : (أن الشقي من شقى في بطن أمه ، والسعيد من سعد في بطن أمه) وهذا علوٌّ سماويّ . فقال الوزير : ليس الأمرُ كذلك ، وإنما أفعالي وتوفيراتي وكفايتي ، ونيابتي ، ونيتي وحرصي ، الذي كان يُهجى ...، وقد مات قومٌ ممن كان ، وبقي قومٌ ..."[٣٩] ، والخبر يطول ، ليأتي بعده خبر آخر وهكذا تتوالى الأخبار التي ينقلها عن الشخصية ، وهي بمثابة التوضيح لهذه الشخصية لدى المتلقي ، وتسليط الضوء على علمه ونتاجه العلمي ، وهذا ما يدخل في رسم الملامح العامة للشخصية ، مما يعطي للخبر المنقول ، وكذلك الشخصية أهمية كبيرة ؛ كون الأخبار المنقولة تخصها من دون غيرها ، وهذا الشيء يدخل ضمن باب التزيين للشخصية كما ذهب إلى ذلك صاحب اللسان حين ذكر وظيفة الوصف من أنه "تزييناً وتحلية"[٤٠]، وهو ما ذهب إليه قدامة بن جعفر وحدده بقوله : "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"[٤١] ، وقد وردّ الوصف في مواضع كثيرة لا يمكن حصرها هنا[٤٢].

إذن يقوم الوصف وبحسب التعريفين على استخلاص فكرة عن الشيء الموصوف ، أو المذكور ، ويعتمد ذلك الاستخلاص على قدرة الناقل للخبر ، وعلاقته بما يصف أو ، ينقله من أخبار ، وقد عرّفت سيزا قاسم الوصف بأنه "أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي ويقدمها للعين ... ويمكن أن نفكر في التصوير اللغوي إنه إيحاء لا نهائي يتجاوز الصور المرئية "[٤٣] ، وفي تعريف آخر "إنه خطاب ينصب على ما هو جغرافي أو مكاني أو شيئي ، أو مظهري سواء أكان ينصب على الداخل أم الخارج"[٤٤] ، وكأننا أمام وصف تفسيري للأخبار وهذا ما قاربناه فيما سبق من الأخبار ، وهذا جزءٌ من السرد ، فلا يمكن " تصور مقطع سرديّ خالٍ من العنصر الوصفي"[٤٥] ، فإذا وجدنا في خبر أحمد بن نصر ، بن الحسين البازيارُ أبو عليّ(ت ٣٥٢هـ) "وكان مشهوراً بالطيبة والخلاعة ، وخفة الروح ، وحسن

المحاضرة ، مع العفة والستر ، وتقلد الحكم في عدة نواحٍ بالشام ..."[٤٦] ، فجميع ما ذكر في الخبر يوحي بصورة معينة وحتى الفعل (تقلد) يوحي بصورة معينة للشخصية وما ستكون عليه في تكملة الخبر .

وترى الدكتورة فاطمة بدر بأنّ "المقاطع الوصفية تستطيع الاستغناء عن تناول الأحداث وجريان الزمن فيها ، وتناول الأشياء الجامدة"[٤٧] ، وهذا الشيء كثير في أخبار ياقوت الحمويّ[٤٨] .

إذن نلحظ أهمية الوصف داخل كل نص سردي صغيراً كان أم كبيراً ، فليس بالإمكان تجاوزه ، أو الاستغناء عنه ، لكنه يختلف من نص لآخر تبعاً لطبيعة النصوص ، وتحملها للمقاطع الوصفية الطويلة التفصيلية ، وقدرة الأديب على ذلك الوصف ، أو الموضوع الذي يتناوله السرد ، وهذا يدل على أن الوصف موجود في أدق التفاصيل ، وليس بالضرورة أن يكون طويلاً ، بل المهم حضوره داخل النصوص السردية القديمة ، والحديثة.

أنماط الشخصيات عند ياقوت الحمويّ:

مع سعة المادة التي جمعها ياقوت في مؤلفاته ، وكثرة الشخصيات التي ترجم لها ، أو وردت في أخباره ، إلاّ أنّه من الممكن علينا معرفة أنواعها واستقصائها كما وردت لديه ، التي لا تخرج عن التقسيم الآتي :

١ـ الشخصية الأدبية أو اللغوية : من ذلك ما ورد في ترجمة ، إبراهيم بن السري بن سهل(ت ٣١١هـ) : "أبو إسحاق النحويّ قال الخطيب : كان من أهل الدين والفضل ، حسن الاعتقاد جميل المذهب ، وله مصنفات حسان في الأدب ، مات في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة "[٤٩] .

نلحظ أنّه ركز الحمويّ على بيان صفات المترجم له من حيث العلم ، والاعتقاد ، والدين ، والكيفية التي قدم بها الوصف اللازم لهذه الشخصية ، لينتقل بعدها إلى نقل أخبارها ، وهذا هو بمثابة إكمال ذلك الوصف ، أو لنقل تأكيده ، ففي حديثه عن الزجّاج قال: "كنتُ أخرط الزجاج فاشتهيتُ النحو ، فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجاناً ، ولا يعلم بأجرة إلاّ على قدرها ، فقال لي : أي شيء صناعتك ؟ فقلت أخرط الزجاج ، وكسبي في كل يوم درهم ودانقان ،أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ في تعليميّ ، وأنا أعطيك كل يوم درهماً ... "[٥٠] .

وهذا الخبر هو تكملة لصفات الشخصية التي يذكرها الحمويّ وينقل أخبارها ، فقد كان معلماً تقصده الناس ؛ لكسب المعرفة ، وهذا ما أشاره إليه ، وذكرناه في الجزء الأول من الخبر الذي أوردناه .

وفي ترجمته لعلي بن محمد أبو القاسم الإسكافي قال : "من أهل نيسابور ذكره الثعالبي فقال : هو (لسان خراسان وعينها ، وواحدها في الكتابة والبلاغة ، وممن لم يخرج مثله في الصناعة والبراعة) ، وكان تأدب

بنيسابور عند مؤدب بها يعرف بالحسن بن مهرجان من أعرف المؤدبين بأسرار التأديب والتدريس ، واعلمهم بطريق التدريج إلى التخريج ..."[٥١] .

نلحظ أنّه ينتقي كلمات الوصف للمُتَرجَم له(لسان خراسان ، عينها ، واحدها) ؛ ليضعك ذهنياً في دائرة من الاهتمام ، والارتباط مع الخبر لتعرف من هو الموصوف ، ويجعلك مشدود الذهن لتلقي الخبر ، حتى النهاية ، وكأنه أخذ بالحسبان نظرية التلقي ، وما توليه من أهمية لمتلقي الخطاب كونه جزءً أساسياً من النص .

٢ـ شخصيات خرافية : فالخرافة مالا يقبله العقل ، أو يصدقه ؛ كونها غير موجودة ، وإنما هي مجرد شيء يحكى ، لكن الحموي لم يوردها في تراجمه ، لكنها جاءت متصلة بأخباره ، وكان لها من الفعل ما يبنى عليه حدث داخل الخبر ، وقد ذكرنا سابقا بأنه حينما يروي هكذا أخبار ، كان يعقب عليها بأنها مما لا وجود لها ، وأنه نقلها من رواتها لا أكثر ، من تلك الشخصيات التي ذكرها في معجم البلدان ما يتصل بخبر مدينة حوث ، والخبر فيها يطول نذكر منه الشاهد من أن سهل بن عمر بن قيس بن معاوية بن جثم بن عبد شمس ، كان سيّاحا يطوف البلدان : " فبينما هو كذلك إذ أبصر شخصاً كجماء الفحل المقرم ، قد تجلل بشعره ، وذلاذله تنوس على عطفه ، وبيده سيف كاللجة الخضراء ، ونفضت عنه الخيل ، وأصرت بآذانها ، ونفضت بأبوالها ... ، فأقبل يلحظنا كالقرم[٥٢] الصؤول ، ثم وثب كوثبة الفهد على أدنانا إليه[٥٣] ، فضربه ضربة قط عجز[٥٤] فرسه ، وثنى بالفارس ، وجزله جزلتين [٥٥]... ، ثم نزقنا خيلنا للحملة عليه ، وإنها لتشمئز عنه ... ، وكلما خالطه سهمٌ أمر عليه يده ، فكسره في لحمه ... ، ثم صاح به القيل ، (ويعني الملك) من أنت ؟ ويلك ! فقال بصوت كالرعد : أنا حُرثُ ، لا أراعُ[٥٦] ، ولا أُحاث ، ولا ألاع ، ولا أكترث ..."[٥٧] .

نجد أنفسنا أمام شخصية ربما تكون من نسج راوي الخبر لا من عند الحموي ؛ كونه لا يقبل هكذا روايات ، بل يكتفي بذكرها ، كما صرح بذلك ، فالشخصية ليست واقعية بما ورد لها من وصف استقصى ملامحها الخارجية ، حتى جعلنا ننتقل بمخيلتنا إلى عالم آخر غير العالم الواقعي ، ونتوهم بأنّ ما يروى جزءٌ من الحقيقة التي كانت آنذاك ، حتى أننا ندخل باب التخيل السردي وهو ما تبنى عليه جميع النصوص السردية ، كذلك أنّ لغة الحوار تكشف لنا مدى خيالية هذه الشخصية ، وما نتج عنها من نهاية للخبر .

ويعطى الوصف للشخصيات الخرافية " ألوانها وجمالها وظروفها"[٥٨] ، فعن طريقه نتمكن من معرفة جنس ، وسن الشخصية ، وما يتعلق بها من حيث المظهر الخارجي[٥٩].

وفي خبر آخر نقف أمام شخصية خرافية أخرى ، بصورة وصفية تشي بهيئتها ، وتلقي عليها شيئاً من التهويل ، وإدخالها عالم الغيبيات ؛ كون العرب كانت تؤمن قديماً بها ، وترسمها في حكاياتها ، وأخبارها ، وفي خبر طويل عن يأجوج ، ومأجوج ، ينقل الحمويّ خبره قائلاً : " قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد ، رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة ... بلغني أنّ فيها رجلا عظيم الخلق جداً ... ، وكان من خبره أنّ قوما من التجار خرجوا إلى نهر إتل[٦٠] ... ، فقالوا : أيها الملك ، قد طفا على الماء رجلٌ إنْ كان من أمة تقربُ منا ، فلا مقام لنا في هذه الديار ... ، فركبت معهم ، حتى سرتُ إلى النهر ... ، وإذا برجل طوله اثنا عشر ذراعاً بذراعي ، وإذا رأسه كأكبر ما يكون من القدور ، وأنفه أكبر من شبر ، وعيناه عظيمتان ، وأصابعه كل واحدة شبرٌ ... وأقام عندي مدّة ، ثم علقت به علة في نحره ، فمات بها ، وخرجت فرأيتُ عظامه ، فكانت هائلة جداً"[٦١].

لقد هيّأ صاحب الخبر المتلقي إلى ما سيأتي من حكاية ، فيها مالا يمكن قبولها في يومنا هذا ، وذلك عن طريق خلق المكان (بلاد الصقالبة) ؛ كونها بعيدة عن مشاهدات المتلقي يومها ، وكذلك الاستعانة بأخبار هذه الأقوام (يأجوج ومأجوج) من القرآن ؛ ليرسم معالم شخصياتهم ، وهيئاتها ؛ حتى يُدخل المتلقي بجوٍ من الواقعية إلاّ أنّ ما ذُكر من نسج خيال الراوي ، مبالغة منه في التخويف ، والتشويق ، فجاء الوصف متماشياً لما أراده وسعى إليه ، فـ"لكل نمط من أنماط الشخصية طريقته الخاصة في الدخول إلى مسرح الأحداث"[٦٢]، وهذا ما هيّأ لها الدخول في متن الخبر ، لكن ما يؤكد خرافية الخبر المذكور أمرين : الأول ما ختم به الخبر (من بقايا عظام الشخصية) ، والثاني : ما ذكره الحموي أنّه من الأخبار التي لا يمكن الوثوق بها[٦٣].

٣ـ شخصيات دينية : وقد استعان الحمويّ في تحديد هذه الشخصيات بالوصف الموضوعي ، إذ حدد فيه وصف هذه الشخصيات وصفاً محايداً ، من دون اعتماد الوصف الانتقائي ، بل يتجه في الأغلب إلى الوصف الاستقصائي في تحديد صفات شخصياته التي يترجم لها ، ففي خبر مدينة ميورقة يذكر لنا خبر يوسف بن عبد العزيز(ت٥٢٣هـ) : "يوسف بن عبد العزيز بن علي بن عبد الرحمن أبو الحجاج اللخميّ الميورقي ، الأندلسي ، الفقيه المالكيّ ، رحل إلى بغداد ، وتفقه بها مدّة ، وعلّق على الكياء ، وقدم دمشق سنة (٥٠٥هـ) ، قال ابن عساكر : وحدثنا بها عن أبي بكر أحمد بن علي بن بدران الحلواني ، وأبي الخير المبارك بن الحسين الغساني ، وأبي الغنائم أبي النرسي ، وأبي الحسين ابن الطيوري ، وعاد إلى الإسكندرية ، ودرّس بها ، وانتفع به جماعة"[٦٤] .

استقصى الحمويّ وصفه للشخصية عن طريق العلم والدين معتمدا ما أسميناه الوصف الموضوعي ، وما كاد أنْ ينتهي منه إلا ليدخل في وصفٍ آخر له عن طريق ما ذكره في أخباره ، ومناقشاته ، وخصوماته ، فأعطنا الوصف بعداً تفسيرياً لتلك الشخصية ، ووضعنا فيه أمام حقيقة شاهدة لا يمكننا نكرانها ، ليدخلنا إلى عالم الوصف الاستقصائي لجوانب الشخصية المختلفة ، وهذا يدلنا أنّ للوصف حضوراً في أخباره التي يوردها ، ومثل هذا الوصف نجد فيه أنّ الحمويّ يتخذ باب التقصي الدقيق ، فلا يذكر من الأخبار ما لا يقبله العقل ؛ كونه يتعامل مع شخصيات واقعية لها حضورها الواقعي غير المتخيل.

وما يمكن ملاحظته ، أنّ الشخصيات التي يترجم لها الحمويّ (في معجم الأدباء) شخصيات واقعية ، وأخبارها واقعية أيضاً ، فلا وجود للشخصيات الخرافية فيها ، أو الدينية ، وهذا يعني وحدة المنهج المتبع لديه من أنّ ما يؤلفه هو (معجم للأدباء) وليس (للأدباء ، والأعيان) ، لكن في (معجم البلدان) تحضر أنماط مختلفة من الشخصيات مناها الواقعي ، والأسطوري ، والمتخيل الخرافي .

٤ـ شخصيات اسطورية : هذه الشخصيات سجلت حضورها في معجم البلدان ؛ كون الأخبار التي وردتْ تتعلق بالأماكن وما تضمه من أشياء كثيرة تكون الشخصيات إحداها ، وفيها من الأسطورة الشيء الواضح ، من ذلك ما جاء من خبر عاد بن شداد صاحب (إرم ذات العماد) ، وخبر بنائه لجنته : "رووا أن شداد بن عاد كان جباراً ، ولما سمع بالجنة ، وما أعد الله فيها لأوليائه من قصور الذهب والفضة .... قال لكبراءه : إني متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة ... ، ومكث في بنائها خمسمائة عام ...، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها ، فعزم على الخروج إليها في جنوده ... ، فلما قرب شداد من المدينة ، وانتهى إلى مرحلة منها ، جاءت صيحة من السماء ، فمات هو ، وأصحابه أجمعون"[٦٥] .

أخذت شخصية (شداد بن عاد) إسطوريتها من خلال مطابقتها للواقع الذي رواه القرآن الكريم من أخبار هذه المدينة ، وملكها الجبار ، فهي ضمن الأمكنة القرآنية ، ولا يعني أنّ الحمويّ قصد إلى هذا البناء الأسطوري قصداً ، بل يذكره ضمن مجموع الأخبار التي يرويها ، أو ينقلها .

ومن الشخصيات الأسطورية شخصيتي (إساف ونائلة) الجاهليتين : "صنمان كانا بمكة . قال ابن إسحاق : هما مسخان ، وهما إساف بن بُغاء ، ونائلة بنت ذئب ... ، وكان (أي إساف) يتعشقها بأرض اليمن ، فأقبلا حاجين ، فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس ، وخلوة في البيت ، ففجر بها في البيت ، فمُسِخا ، فأصبحوا ، فوجدوهما مسخين ، فأخرجوهما ، فوضعوهما موضعهما ، فعبدتهما خزاعة ، وقريش ، ومن حج البيت بعدُ من العرب ..."[٦٦] .

و نجد أنّ الشخصيتين تحولتا إلى أسطورة رسخت قديما ، وتناقلتها الأخبار عبر العصور ، حتى أصبحا أسطورة ؛ نتيجة لتداول خبرهما عبر العصور ، وكذلك ما فيه من قصة خيالية ربما نسجت من خيال رواة الخبر .

إذن لا يمكن دراسة أيُّ نصٍ سرديٍّ من دون تناول الشخصية ؛ كونها محورا خاصا و ركنا أساسيا في البناء السردي ، فهي من تتولى القيام بالأحداث "فتشكل نسيج السرد ، واتصال حلقاته معقود إلى درجة كبيرة بما يميز شخصياته من نشاط ، وما ينم عنها من أفعال ، و حوارات تتباين بتباين محمولاتها ، واختلاف مواقعها ، ومستوياتها"[٦٧] .

من خلال ما تقدم يمكننا القول : إنّ الخبر قادر على استيعاب صفات السرد ، وخصائصه من حيث الوصف ، والشخصية ، والمكان ، والزمن الذي سنوضحه في الدراسة ، فهو بما يحمله من شحنات دلالية ، وأخرى سردية على الرغم من صغر مساحة السرد التي يشتغل بها ، فإنه صار البنية الأولى ، وأخذ حيزاً كبيراً داخل الكلام العربي بمختلف أشكاله بوصفه جنساً ؛ لذا ، فهو يدخل ضمن أجناس ثلاث الخبر ، والشعر ، والحديث[٦٨] ، وكما يقول سعيد يقطين : "يمكننا توظيف مفهوم السرد للدلالة على مختلف الأنواع الخبرية ، وذلك لتجنب الالتباس الذي يمكن أنْ يُحدثه مفهوم الخبر الذي نجده نوعاً من هذه الأنواع ... والخبر نوعاً أولياً فيها "[٦٩] ، ويمثل الخبر شكلاً من أشكال الثقافة المحمولة التي تناقلت إلينا من أجيال أقل ثقافة إلى أخرى أكثر منها ثقافة ، فمن الجاهلية وما تضمنته من قيم ، ومعايير مختلفة ، إلى الإسلام ذي الرؤى ، والأفكار المختلفة تماماً ، وما رافق تلك التحولات الانتقالية من المشافهة إلى الكتابة ، تحولاً كبيراً من الجمع ، والتدوين إلى الإبداع ، ظهرت لنا مدونات كبيرة ضمت أصنافاً إبداعية كبيرة بدءاً من الحكاية ، مروراً بالخبر ، والمقامة ، وغيرها من تلك الفنون الإبداعية التي أنتجتها المخيلة العربية آنذاك[٧٠].

إذن النص الإخباري نصٌ إبداعيٌ يحمل كثير من مزايا السرد ، ويتصف بصفاته ؛ لأنه جزء من دائرة أكبر هي (الشعرية) ، وما قدمته الدراسات التي تناولته دليلٌ على إبداعيته ، ومقدرته على الانضمام داخل خيمة السرد مع حداثة تسميتها ، والكيفية التي تناولت بها النصوص الإبداعية ، إلاّ أنّ الخبر استطاع أنْ يجد لنفسه مكاناً أثيراً داخل منظومتها الإبداعية ، حتى عده عدد من الدارسين ، أنّه أصغر وحدة حكائية داخل السرد ، وبه يكون قد أخذ مكانه ضمن هذه المنظومة سواء الإبداعية منها أم غير الإبداعية .

ويتفرد الخبر عن غيره من النصوص الأخرى بخاصية الإسناد التي أخذها عن الحديث الشريف ، وتقاسمها معه ، والإسناد فيه يتم عن طريق توخي الدقة في ذكر أسماء الرواة الأول تلو الثاني حتى تنتهي

تلك السلسلة الإسنادية إلى الصيغة السردية التي ينتهي بها الخبر ، الذي يقوم على قوة إنجازية ناتجة من تحرك أفعاله الإخبارية ، وما تؤديه من أثر في عملية الإخبار ، والتلقي ، وما يولده من دلالات ، ورموز تؤدي إلى صيغ معينة تناولها الباحثون بالتأويل ، والدلالة ؛ للوقوف على تلك الطاقة الإنجازية لأفعاله .

الهوامش

١- ينظر : إشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير : ١٥٥، وينظر :بناء الرواية العربية السورية ، سمر روحي الفيصل : ٢٤٩.

٢- التراث والرؤية الشعرية للواقع العربي ، حاتم الصكر ، و الدكتورة اعتدال عثمان : ٥١.

٣- الشعر والصوفية كولن ولسن : ٨١.

٤- ينظر : البناء الفني للرواية ، شجاع مسلم العاني : ٢٥٢.

٥- ينظر : البناء الفني لرواية الحرب ، عبدالله إبراهيم : ١٢٧.

٦- معجم البلدان ، ياقوت الحموي : ١ / ٢٠٢- ٢٠٣.

٧- م . ن : ١ /١٤٣.

٨- ينظر : السرد العربي ، مفاهيم وتجليات ، سعيد يقطين : ١٥٣ ، وينظر: جماليات المكان الروائي ، محمد صابر عابد ، وسوسن هادي جعفر البياتي .

٩- الخبر في الأدب العربي ، دراسة في البنية السردية ، الدكتور محمد القاضي : ٥٩٣.

١٠- ينظر : السرد العربي ، مصدر سابق : ١٧١.

١١- معجم البلدان ٢/ : ١٢٦.

١٢- معجم الأدباء ٢/ ٥٧١، ٥٧٢.

١٣- معجم البلدان : ١/ ٣٠٩.

١٤- ينظر : الرواية والمكان ، مصدر سابق : ١/ ٢٧، وينظر : الرواية والعنف ، الشريف حبيلة : ٢٥.

١٥- ينظر : الرواية العربية واقع وآفاق ، محمد برادة : ٣٩٦.

١٦- إنتاج المكان بين الرؤيا والبنية والدلالة ، د . محمد الأسدي : ٣٢.

١٧- الأنظمة السيميائية ، هيثم سرحان : ٧١.

١٨- معجم البلدان :٢/ ٢٥١.

١٩- إنتاج المكان بين الرؤيا والبنية والدلالة ، محمد الأسدي : ٢٤.

٢٠- ينظر : الاستهلال ، فن البدايات في النص الأدبي ، ياسين النصير : ١٧٧.

٢١- ينظر : سعيد يقطين ، الكلام والخبر ، مصدر سابق : ١٩٥.

٢٢- معجم البلدان :٥/ ٢٧١.

٢٣- معجم البلدان :٤/ ١٣٧.

٢٤- ينظر : الزمان الوجودي ، د . عبد الرحمن بدوي : ٥٣.

٢٥- ينظر : مدخل جديد إلى الفلسفة : ١٩٦- ١٩٧.

٢٦- رسالة الحروف ، الفارابي : ٨٨.

٢٧- رسالة الحدود ، ابن سينا : ٩٤.

٢٨- انتاج المكان ، مصدر سابق : ١٥١.

٢٩- معجم البلدان : ١ / ١٥٥.

٣٠- م . ن : ٥/ ٢٧٢.

٣١- معجم البلدان : ٤/ ٤٩٢.

٣٢- م . ن : ٤/ ٤٩٢.

٣٣- الشخصية في أدب جبرا إبراهيم جبرا ، د. فاطمة بدر : ٩.

٣٤- ينظر : الشخصية في أدب جبرا إبراهيم جبرا ، مصدر سابق : ١١.

٣٥- ينظر : خطاب الحكاية ، جيرار جنيت : ١٧٨- ١٧٩.

٣٦- مدخل إلى التحليل البنيوي ، رولان بارت ، ترجمة نخلة فريفر ، مجلة العرب والفكر العالمي ع٥، شتاء ١٩٨٩: ٣١.

٣٧- البناء الفني لرواية الحرب ، عبد الله إبراهيم : ٨٧.

٣٨- معجم الأدباء :٢ / ٨٠٧.

٣٩- معجم الأدباء : ٢/ ٨٠٨.

٤٠- لسان العرب : مادة وصف .

٤١- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر : ١٣٤.

٤٢- ينظر : معجم الأدباء / ١: ٣٥ ، وينظر : م . ن : ٢/ : ٤٨٣، وينظر : م . ن : /٣ : ٩٥٧، وينظر : م . ن : /٤ : ١٤٣٩.

٤٣- بناء الرواية ، مصدر سابق : ٧٩-٨٠.

٤٤- وظيفة الوصف في الرواية ، مصدر سابق : ٦.

٤٥- بناء الرواية ، مصدر سابق : ٨٣.

٤٦- معجم الأدباء :٢/٥٢٦.

٤٧- الشخصية في أدب جبرا إبراهيم جبرا ، مصدر سابق : ١١٤.

٤٨- ينظر : معجم الأدباء : ٥/ : ١٩٢٠ ، و ١٩٢٣، وينظر : م . ن : ٦/ ٢٧٩٣، و ٢٧٩٥.

٤٩- معجم الأدباء : ١/ ٥١- ٥٢، وينظر : م . ن : ١/ ٥١ ، و ٥١.

٥٠- م . ن : ١/ ٥١. ، ينظر : م . ن: ٢/ ٧٦٩، و ٧٧٠ ، و ٧٧٣.

٥١- معجم الأدباء : ج :١/ ٩٣.

٥٢- القرم : الفحل الذي ترك من الركوب ولا يستعملوه للعمل : ينظر المحكم والمحيط الأعظم ، ابن سيده ٦/ ٤.

٥٣- أدنانا إليه : أي أقربنا عليه .

٥٤- قط عجز : بمعنى قطع مؤخرته .

٥٥- جزله جزلتين : أي قطعه بالسيف إلى قطعتين ، ينظر : المحكم والمحيط الأعظم ، ابن سيده : ٧/ ٢٩٣.

٥٦- لا أراع : لا أخاف (وهو من الروع) .

٥٧- معجم البلدان :٢ / ٢٣٨- ٢٣٩.

٥٨- مورفولوجية الخرافة ، فلاديمير بروب : ٩١.

٥٩- مورفولوجية الخرافة ، مصدر سابق: ٩١.

٦٠- نهر إتل : اسم لنهر في بلاد الصقالبة (بلغاريا حالياً) .

٦١- معجم البلدان : ١/ ٨٧-٨٨.

٦٢- مورفولوجية الخرافة : مصدر سابق : ٨٧.

٦٣- ينظر : معجم البلدان :١/ ٨٨.

٦٤- معجم البلدان :٥ / ٢٤٦.

٦٥- معجم البلدان :٥ / ١٥٥- ١٥٦.

٦٦- معجم البلدان : ١/ ١٧٠.

٦٧. سرد الأمثال، لؤي حمزة عباس، ١٢٩.

٦٨- ينظر : السرد العربي ، مصدر سابق : ١٥١ – ١٥٢.

٦٩- السرد العربي ، مصدر سابق : ١٥٣.

٧٠- ينظر : سردية الخبر العجائبي ، دراسة في كتاب أخبار الزمان للمسعودي ، رسالة ماجستير، جامعة البصرة ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية ، أحمد حميد : ٢٢.

المصادر

- أساس البلاغة ، أبو القاسم جار الله الزمخشري ، تحقيق : مزيد نعيم ، و شوقي المصري ، بيروت – مكتبة لبنان ، ناشرون ، (د .ط) ، ١٩٩٨م .
- إشكالية تجنيس الخبر الأدبي ، كتب أخبار النساء والجواري حتى نهاية القرن العاشر الهجري إنموذجاً ، أ. شاكر هادي التميمي ، ٢٠١٦م .
- أصول الحديث، عبد الهادي الفضلي ، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط٢، ٢٠١١هـ .
- الأمالي ، أبو علي القالي ، تحقيق : محمد عبد الجواد الأصمعي ، بيروت ، دار الآفاق ، (د . ط) ، (د . ت) .
- بنية الخبر في كتاب ، عيون أخبار الرضا ، للشيخ الصدوق (٣٨١هـ) ، أسيل سالم كاظم ، رسالة ماجستير ، جامعة ذي قار ، كلية الآداب ٢٠١٩م.
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد الزبيدي ، تحقيق : إبراهيم الترزي ، بيروت – دار الفكر ، ط١ ، ١٩٩٤م .
- ثريا النص ، مدخل لدراسة العنوان القصصي، محمود عبد الوهاب، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ، ١٩٩٥م ، (د . ط) .
- الخبر في الأدب العربي ، دراسة في السردية العربية ، الدكتور محمد القاضي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٨م .
- السرد العربي القديم ، البنية السوسيو ثقافية والخصومات الجمالية ، عبد الوهاب شعلان ، سوريا، اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٥م.
- عتبات جيرار جنيت، من النص الى المناص، عبد الحق بالعابد ، تقديم سعيد يقطين ، الدار البيضاء للعلوم ناشرون ، ومنشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠٠٨م.
- العراق في الرواية العراقية من ١٩٩٠حتى ٢٠٠٣ ، رسالة ماجستير ، عزيز موسى عزيز ، جامعة بابل كلية التربية للعلوم الإنسانية ، ٢٠١٣م .
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

- العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ، محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د . ط) ، ١٩٩٨م .
- الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٤م .
- الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري : الدكتور، أركان الصفدي ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠١م .
- الفهرست ، أبو الفرج محمد ابن النديم ، تحقيق : إبراهيم رمضان ، بيروت – دار المعرفة ، ١٩٩٤م . (د . ط) .
- القول الشعري والقراءة السردية ، محمد صالح عبد الرضا ، الناشر ، جامعة البصرة ، مديرية دار الكتب للطباعة ، ٢٠١٣.
- كشاف اصطلاحات الفنون محمد علي الفاروقي التهاوني ، تحقيق : لطفي عبد البديع ، ترجم النصوص الفارسية : عبد المنعم محمد حسنين ، مراجعة : أمين الخولي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (د.ط) ، ١٩٧٢م .
- لسان العرب ابن منظور، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .
- المخصص ابن سيدة (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق : خليل إبراهيم الجفال ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦م .
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، تأليف : ياقوت بن عبد الله الحمويّ ، ط٢ ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٦م .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، (د . ط) ، ١٩٨٣م .
- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، تحقيق : محمد إبراهيم عبادة ، مكتبة الآداب ، القاهرة – مصر ، ط١، ٢٠٠٤م .
- المقتضب من كتاب جمهرة النسب ، ياقوت الحمويّ (٥٧٥– ٦٢١هـ) ، تحقيق الدكتور ناجي حسن ، اخراج وتنفيذ ، الدار العربية للموسوعات ، ط١ ١٩٨٧م .
- مقدمة ابن الصلاح ، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري ، تحقيق وشرح : نور الدين عتر ، دار الفكر المعاصر ، بيروت – لبنان ،(د.ط) ، (د . ت) .
- موسوعة السرد العربي ، عبد الله إبراهيم ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان (د . ط) ، ٢٠٠٨م .

❖ النثر العربي القديم ، بحث في البنية السردية ، عبد الله إبراهيم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث ، الدوحة – قطر ، ط١، ٢٠٠٢م .